الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

أدركت عمادة كلية العلوم الإسلامية أهمية إصدار مجلة تعبر عن نهجها وأسلوبها العلمي الرصين بما ينسجم وسياسة الكلية القويمة بعيداً عن التعصب والفئوية وبنهج سليم يعبر عن روح الإسلام العظيمة والوفاء لأساسيات الفكر الإسلامي وعقيدته وحضارته الخالدة.

ومن أجل التعبير عن الواقع العلمي في هذه الكلية كان لا بد من إصدار مجلة علمية رصينة تطرح بها نتاجات أعضاء الهيئة التدريسية في كليتنا خاصة ولجامعتنا عامة وكل الباحثين الأصلاء من ذوي التخصصات المتقاربة شريطة أن تتوفر فيها مقومات البحث الأصيل والمستوى العالي بما يليق ويتناسب وكلية العلوم الإسلامية والالتزام بأحياء الحضارة الإسلامية فليس أحسن وأفضل هدية يقدمها الباحث لأخيه المسلم من كلمة حكمة وقد قال (صلى الله عليه وسلم): ((وما انفق منفق ولا تصدق أفضل من كلام الحكمة...)) وقال (صلى الله عليه وسلم): ((نعم الهدية ونعمت العطية الكلمة من كلام الحكمة يسمعها الرجل المؤمن ثم ينطوي عليها حتى يهديها لأخيه المؤمن...)) وقال (عليه الصلاة والسلام): ((الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها ولا يبالي من أي وعاء خرجت))(١).

وكما هو واضح فان منبر المجلة الأكاديمية يعد من المنابر المهمة والفعالة في نشر الروح الإسلامية الصافية التي تدعو إلى الوحدة والخلق القويم والتي تضع الخطوات الدقيقة لقيام حضارة إسلامية عريقة تحدد المسارات الصحيحة لقيام دولة الحرية والتسامح دولة الإخاء، دولة الوحدة، دولة العقيدة السليمة والفكر القويم.

---

(١) انظر: أبو الوفاء المبشر بن فاتك، مختار الحكم ومحاسن الكلم (بيروت: ١٩٨٠)، ص٢.

وهكذا فان مجلة كلية العلوم الإسلامية سوف تعمد إلى نشر البحوث الرصينة والتي تبحث في نشر الحكمة التي هي ضالة المؤمن.. والحكمة معرفة حقيقة الشيء. أي أن المجلة سوف تعتمد أسلوباً علمياً قويماً في نشر البحوث الأكاديمية التي يقدم فيها الباحثون دراستهم وفق المنهج التجريبي السليم في كتابة الهوامش وعرض البحوث، بالإضافة إلى طرح دراساتهم وفق المنظور الاستقرائي عبر المراحل الثلاث: مرحلة البحث **(جمع المادة)** ومرحلة الفرض **(تفسير المادة)** ومرحلة البرهان **(أي التحقق من صحة التفسير)**.

وبعد نأمل من الله تعالى أن تسد هذه اللبنة ثغراً من ثغور حصن الثقافة الإسلامية في هذه الكلية والجامعة وان تكون هذه المجلة بأعدادها المقبلة نبراساً لطلاب المعرفة الإسلامية الذين يسعون لخدمة الدين الإسلامي وحضارته العظيمة لما فيه وحدتهم ورفعتهم وعزتهم بإذن الله تعالى.

ومن الله التوفيق

الأستاذ الدكتور

دريد عبد القادر نوري

عميد كلية العلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

على بركة من الله تصدر (مجلة كلية العلوم الإسلامية) المنبثقة عن كلية العلوم الإسلامية بجامعة الموصل عددها الأول.

وتعد من المجلات العلمية المحكمة التي تعنى بنشر البحوث العلمية الرصينة لتدريسي الكلية وباحثيها ونظرائهم من الجامعات والمؤسسات العلمية داخل العراق وخارجه ولاسيما في العالمين العربي والإسلامي وبما يتماشى ونهج الكلية المعبر عن روح الإسلام ومبادئه الإنسانية (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) والتعريف بلغته ومنجزاته الحضارية بروح علمية بناءة بعيدة عن التعصب والانغلاق والمغالاة والفئوية والرد المنطقي لكل من يحاول النيل من هذا الدين الحنيف ومحاولة الاستلاب والتميز الحضاري للمسلمين عبر خمسة عشر قرناً من الزمان.

وبعد نتمنى من الله عز وجل أن يكون العدد الأول من مجلة كلية العلوم الإسلامية باكورة نتاج علمي متواصل ومنبراً علمياً مضافاً للمجلات والحوليات العلمية الأخرى في كليات جامعة الموصل ومراكزها العلمية التي دامت منذ تأسيسها قبل ثلاثة عقود على الرفد والعطاء العلمي المتواصل، وكانت في مقدمة الجامعات العراقية المعبرة عن التواصل الحضاري للعراق.

والله من وراء القصد

الأستاذ الدكتور

أحمد قاسم الجمعة

رئيس التحرير

إنتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء
دراسة في خطوات الإنتشار والأسباب والوسائل

أ. د. دريد عبد القادر نوري
كلية العلوم الإسلامية – جامعة الموصل

ملخص البحث

لقد مر انتشار الإسلام في أفريقيا بثلاث مراحل تاريخية شملت الأولى انتشار الإسلام واستقراره في شمال أفريقيا خلال القرن الأول للهجرة وما كان له من تأثير انتشار الإسلام في الصحراء وما يليها. أما المرحلة الثانية فإنها تشمل أسلمة الصحراء الأفريقية الكبرى وإعادة نشر الإسلام فيها على أيدي المرابطين خلال القرن رقم ٥ هـ/ ١١ م. أما المرحلة الثالثة فقد كانت بانتشار الإسلام في مناطق واسعة من بلاد أفريقيا جنوب الصحراء وساحل شرق أفريقيا بوساطة عديد من الوسائل ولاسيما التجار الذين أدوا دوراً رائداً في هذا المضمار بالطرق السلمية مع ملاحظة أنهم كانوا مسلمين وأنهم حملوا معهم إلى أفريقيا أخلاق الإسلام في التجارة فضلاً عن عباداتهم وممارساتهم الدينية كلها.

قام البحث بدراسة انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء من حيث الخطوات والأسباب والوسائل مع التأكيد على ذكر الأدلة العلمية والنصوص التاريخية التي أوضحت ان الإسلام بقوته الروحية لا بدعاية الأموال والأسلحة !

The Spreading of Islam In Africa (South of Desert)

Prof. Duriad Abdul Gadir Nori
Islamic Sciences College

Summary of Paper

The spreading of Islam in Africa has been throughout with three Historical (Periods, the first one include the spreading of Islam and it's stability in North - Africa through the first century of Al-Hijra and what has in flounce of the spreading of Islam in desert and what they came after.

The second period including the Islam of the big African desert and repeat of the Islamic spreading in it by the people who are still their though the fifth century\ 11CD.

The third period was by the spreading of Islam in the expanding areas from the country of big desert in Africa the south of the desert the coast of eastern of Africa by many ways especially those merchant who do good role in the desert of Africa and they were Muslims also.

This paper has been studied the spreading of Islam in Africa in the south of the desert concerning the reasons and methods to offered the Historical evidence and scientific which showing this.

Title of paper: The spreading of Islam in Africa south of the desert.

This paper begin to study the spreading of Islam in Africa and the south of desert including the steps, reasons and methods with the emphasis that Islam was spread by its spiritual force not under the patronage of finance and weapons !

لقد مر إنتشار الإسلام في أفريقيا بثلاث مراحل تاريخية شملت الأولى إنتشار الإسلام وإستقراره في شمال أفريقيا خلال القرن الأول للهجرة وما كان له من تأثير في إنتشار الإسلام في الصحراء وما يليها، أمّا المرحلة الثانية فإنها تشمل أسلام الصحراء الأفريقية الكبرى وإعادة نشر الإسلام فيها على أيدي المرابطين خلال القرن ٥ هـ /١١ م.

وأخيراً جاءت المرحلة الثالثة التي عمّ فيها إنتشار الإسلام في مناطق واسعة من بلاد السودان الكبرى[١] (أفريقيا جنوب الصحراء) وساحل شرقي أفريقيا بوساطة العديد من الوسائل التي سوف نتطرق إلى ذكرها تباعاً – ولاسيما التجار الذين أدوا دوراً رائداً في هذا المضمار بالطرائق السلمية مع ملاحظة أن أولئك التجار كانوا مسلمين وأنهم حملوا معهم إلى أفريقيا أخلاق الإسلام في التجارة، فضلاً عن عباداتهم وممارساتهم الدينية كلها.

تمثل سنة ٢١ هـ /٦٤٢ م نقطة البداية لإستقرار الإسلام في أفريقيا الشمالية، فقد حررت مدينة الإسكندرية واستمر الفاتحون في عملياتهم الجهادية وكان التركيز بالدرجة الأولى على نشر الإسلام في المناطق الساحلية. وكان من المعقول والمنطقي أن يصاحب عملية النشر هذه عملية هيمنة عسكرية ليس على الساحل فحسب بل على المناطق الداخلية وعليه فقد آتجه عمرو بن العاص نحو برقة على رأس جيش يقدر بنحو أربعة آلاف رجل من القبائل المختلفة التي أنجزت تحرير مصر(٢) ثم إستمر الفاتحون حتى وصلوا المغرب الأقصى مكللين بالنجاح.

ومن الواضح تأريخياً أن القادة المسلمين خصصوا جلّ نشاطهم لموضوع نشر الإسلام وكان يعقب إنتصاراتهم العسكرية كلها نشر الإسلام بالطرائق السلمية، لأن الإسلام هو الاستسلام لله تعالى عن طواعية وأنه لاإكراه في الدين، كما كانت العمليات العسكرية تتم ضد القوات البيزنطية التي تهدف بالأساس حماية الوجود الأجنبي ومنع إنتشار الإسلام. في حين كانت مهام القوات العسكرية الإسلامية طرد القوات البيزنطية من المنطقة ومنع قيام محالفات عسكرية مع القوات الوطنية المضللة، وفسح المجال للدعاة المسلمين لتبليغ رسالة الإسلام لشعوب المنطقة بتكليف من الله تعالى من دون إكراه فمن أسلم فلنفسه، ومن ضلّ فعليه القبول بأبسط قواعد المواطنة وهو التعهد في دعم ميزانية الدولة أسوة بالمسلمين، والالتزام بعدم خيانة الدولة والتحالف مع الأعداء ضدها. وقد منح مكرمة بإعفائه من الخدمة العسكرية والتطوع في إسناد الدولة الإسلامية والمسلمين مادياً(٣) علماً بأن مجموع ما يعطيه الواحد منهم طيلة عمره لا يساوي بدل الإعفاء من الجندية في أية دولة من دول العالم اليوم.

حقق صدق الفاتحين مع ربهم ودينهم وحسن تعاملهم مع السكان المحليين الإنتصارات الكبيرة في الشمال الأفريقي كله، ففي أقل من نصف قرن إتحد الإسلام مع السكان المحليين إتحاداً قوياً بدأ وكأن الإسلام وليد تلك المنطقة إذ حدث كما ذكر المؤرخ الفرنسي فوتية "ثورة عارمة إذ تخطت البلاد ذات الحاجز الفاصل بين الغرب والشرق والذي صعب إجتيازه في بلدان أخرى. إنها قفزة المجهول نجد الثورتين الفرنسية والروسية بالنسبة إليها متواضعتين جداً"(٤).

وبذلك إنتشر الإسلام وأستقر في شمال أفريقيا إستقراراً نهائياً وكانت الخطوات الأولى في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (ﷺ) سنة ٢٠ هـ/ ٦٤١ م عندما حررت مدينة الفسطاط ثم الإسكندرية عام ٢١ هـ /٦٤٢ م(٥) ثم تلتها عمليات الفتوح الإسلامية الأخرى التي تكللت بالنجاح التام طبقاً لأهدافها القاضية بإنتشار الإسلام وان كانت على المستوى العسكري والتعبوي قد لاقت عديداً من الصعوبات في أثناء قتالها الشديد للقوات البيزنطية ولقوات البربر الذين سرعان ما دخلوا في الإسلام وأصبحوا جزءاً من قواته ومجاهديه مما ليس من إختصاص البحث الخوض فيه، فهو مكلف بدراسة إنتشار الإسلام في المناطق الأخرى من أفريقيا مما يلي المرحلة الأولى وهي (مرحلة إنتشار الإسلام في شمال أفريقيا). والتي لم ينته القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد فيها إلا وكانت معظم قبائل البربر قد أعلنت إسلامها وبسطت سيطرتها على معظم الصحراء(٦).

وهكذا إنحسرت الوثنية والنصرانية في شمال أفريقيا بفضل إنتصارات المسلمين، ولم يكن إنحسارها وتدهورها عائداً إلى تعصب المسلمين وإنما يعود إلى الإضطرابات الداخلية والفساد الذي عمّ مؤسسات تلك الديانتين(٧). وقد عرض السير توماس ارنولد أسباب نجاح المسلمين بعد أن آعترف بأخلاق المسلمين، فقال "ان انحلال الكنيسة التدريجي دليل على تسامح المسلمين. كما أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون كان لها أكبر الأثر في تسهيل [فتحهم](٨) لهذه البلاد"(٩).

تغلغل الاسلام منذ السنوات الأولى لإنتشاره في شمال أفريقيا نحو الصحراء الكبرى وبلاد السودان من خلال وصول عقبة بن نافع وموسى بن نصير بقواتهما إلى مدينة غانا في أرض السودان الغربي ما بعد الصحراء الأفريقية الكبرى(١٠)، وقد أشار ابن عبد الحكم (ت: ٢٥٧ هـ/٨٧٠ م) إلى حملة عقبة بن نافع بشيء من التفصيل وذكر أنه سنة ٤٦ هـ/ ٦٦٦م قاد حملة من الفرسان تعدادها أربعمائة فارس وأربعمائة بعير وثمانمائة قربة ماء ووصل بها إلى منطقة ودّان ومن ثم إتجه إلى فزّان ثم إلى عديد من المناطق الصحراوية المستوطنة والمؤدية إلى بلاد غانة وقد إستغرقت حملته حوالي خمسة أشهر(١١) تمكن من خلالها العمل على تعريف السكان بالإسلام، فأسلم كثير منهم، كما أعقب تلك الحملات دخول التجار المسلمين إلى تلك المناطق وقيامهم بعديد من الصفقات التجارية.

وعليه فقد مهدت تلك الحملات الأولى إلى إستقرار بعض فصائل العرب المسلمين في تلك المناطق(١٢).

وفي كل ما سبق أدلة واضحة على تعريف السكان في السودان بالإسلام والإقبال عليه لأن الإسلام دين الفطرة، كما أن تلك البلاد خالية تماماً من كل إعتقاد ديني واضح ومنظم فضلاً عن سلامة صدور القوم وعدم تعصبهم ضد المسلمين(١٣).

ان هذه البدايات الأولى لإنتشار الإسلام في شمال أفريقيا قادت فيما بعد الى الخطوات المنظمة لإسلام الصحراء الأفريقية الكبرى وإستقراره وإنتشاره في السودان الغربي الذي يعرف في بعض أجزائه اليوم بـ (أفريقيا الغربية أو غرب أفريقيا). وقد بدأت الخطوة العملية الأولى على أيدي المرابطين الذين هم أول جماعة عقائدية ظهرت في غرب أفريقيا تمكنت من توحيد بلاد المغرب والصحراء والقسم الشمالي من بلاد السودان الغربي.

وقد نجح المرابطون في مسعاهم لما فطروا عليه من نزعة دينية خالصة وحب صادق في الجهاد(١٤). وقد وصفهم ابن الخطيب بقوله : "وكانوا على السنة والجماعة يجاهدون السودان"(١٥). إذ ظهروا في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد في الوقت الذي شهدت فيه بلاد المغرب تفككاً سياسياً وعسكرياً. وقد تمكنوا من توحيد معظم قبائل البربر الرئيسة ثم شكلوا لهم دولة عرفت فيما بعد بـ (دولة المرابطين).

ففي سنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٦م ذهب زعيمهم (يحيى بن إبراهيم الكدالي الصنهاجي) إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وفي أثناء عودته لبلاده تعرّف على الإسلام عملياً ووجد في قومه من التساهل في أمور الدين ما هو كبير فأراد أن يأخذ معه داعياً يتفرغ لدعوة قومه والنهوض بهم إلى مستوى المسلمين الصادقين الذين التقى بهم في ديار الحج وبعض مدن شمال أفريقيا. وقد وقع الإختيار على (عبدالله بن ياسين الجزولي) الذي كان من حذاق الطلبة ومن أهل الدين والعلم والصلاح(١٦).

ويبدو من دراسة النصوص التأريخية ان البربر فرحوا بقدوم عبدالله بن ياسين إليهم إلا أنهم ثقلت عليهم وطأته وما أخذهم عليه من الجد في رفع المنكرات فنافروه ولذا قرر الإرتحال عنهم، غير أن الشيخ يحيى الكدالي لزمه وقال له : "ان كنت تريد الآخرة فهذه عندنا جزيرة في البحر إذا انحسر الماء منها دخلنا إليها على الأقدام فيها الحلال المحض

من الشجر والمسك ندخل إليها نتعبد فيها إلى الموت....."[١٧] فوافقه عبدالله ثم إجتمع حولهما ألف من الرجال الصادقين سماهم بـ (الرابطين)[١٨] نسبة لهذا الرباط الذي أسس على حافة بلاد السودان قرابة الساحل الأطلسي[١٩] في جزيرة تقع على نهر السنغال ويقال عند مصبه في المحيط[٢٠] وهناك في ذلك الرباط أخذ يتجمع كل الصادقين من البربر ليبدأ بهم إعادة نشر الإسلام في الصحراء وهو ما سمي المرحلة الثانية (أسلام الصحراء الأفريقية الكبرى).

وهكذا بدأ نشاط المرابطين العسكري والديني، إذ أمر عبدالله بن ياسين بتدريب أتباعه على الحياة العسكرية فضلاً عما كانوا يتمتعون به من زهد وصلاح، ثم سيرهم بعد ذلك لإحياء حركة الجهاد والتفاني في نشر الإسلام. وقد ذكر ابن أبي زبع ان عبدالله خطب في أتباعه قائلاً : "أخرجوا على بركة الله وانذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وابلغوهم حجته فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عمّا هم عليه، فخلوا سبيلهم وان أبوا ذلك وتمادوا في غيّهم ولجوا في طغيانهم إستعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا"[٢١].

وقد بث الأتباع الأعذار والانذار في قبائلهم سبعة أيام فلما يئسوا من إجابة الدعوة شرعوا بالجهاد[٢٢]. وقد بدأ عملهم بمحاربة جدالة وكلل عملهم بالنجاح إذ أجبروا أفراد تلك القبيلة على إعلان إسلامها مجدداً بإلتزامها بحدود الشرع في صفر سنة ٤٤٦ هـ. ومن ثم غزوا لمتونة ومسوفة وقبائل صنهاجة حتى أذعن لهم الجميع واستقامت لهم السبل وأديت الزكاة وأقيمت الصلاة فانهال عليهم الناس من كل مكان حتى أحكموا سيطرتهم على الصحراء كلها. ثم تقدموا شمالاً فملكوا سجلماسة والسوس[٢٣]. وفي أثناء إحدى الغزوات التي كان يشنها عبدالله بن ياسين أصيب بجروح بالغة فاستدعى شيوخ صنهاجة وأوصاهم بالتمسك بالدين والعمل على أن يكونوا إخواناً في الله والبعد عن الحد على الدنيا وأعطاهم الخيار بإنتخاب من يرضون خلفه من بعده. وقد توفي بعدها في يوم الأحد ٢٤ جمادى الأولى سنة ٤٥٠ هـ/ وانتخب من بعده الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي كان ابن ياسين قد إختاره لقيادة الجيوش[٢٤].

وقد سار الأمير أبو بكر اللمتوني على سياسة من سبقه في العمل الجاد من أجل نشر الإسلام في الصحراء وما حولها. وقد مكنته الظروف من المسير إلى الشمال حيث

بلاد المغرب. فنجح في السيطرة على بلاد لوانة ومدائن ومكناسة وما حولها. غير أنه لم يكمل فتوحاته إذ وصلت إليه في سنة ٤٥٢ هـ/ ١٦٠ م أخبار باختلال أحوال الصحراء لذا ترك قيادة بلاد المغرب بيد ابن عمه الأمير (يوسف بن تاشفين اللمتوني) ليعود إلى الصحراء من جديد[٢٥].

ومن هنا فان المرابطين الذين بقوا بعيداً عن بلاد المغرب كان لهم الدور المهم في نقل الإسلام إلى بلاد السودان. وهم الذين سيدور عليهم بحثنا تباعاً. لأنهم بعد أن أكملوا مهمة نشر الإسلام في الصحراء تحولوا إلى بلاد السودان الغربي، وبعد أن سقط كيانهم السياسي فيما بعد رجعوا إلى وظائفهم الأساسية في الصحراء، وهي تسهيل مهمة التجارة عبر الصحراء والقيام ببعض الصفقات التجارية مع أهالي السودان الغربي.

إستقرار الإسلام في السودان الغربي

أشرنا من قبل الى أن الإسلام دخل بلاد السودان الغربي من الصحراء، غير أن من المؤكد أن الإسلام لم يدخل هناك في القرن ٥ هـ/ ١١ م على أيدي المرابطين، وإنما تسرب إلى هناك منذ نهاية القرن الأول للهجرة بوساطة المحاولات الإستطلاعية التي قام بها المجاهدون الأوائل وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. ولعل مما له تأثير كبير على إعتناق السودان الإسلام، أن الإسلام إستقر في بلاد المغرب والصحراء وقد كانت هذه المناطق على صلة دائمة ببلاد السودان الغربي عن طريق التجارة إذ كان التجار رسل الإسلام الأوائل الذين بذروا الإسلام بشكل جيد في نفوس الزنوج وكان البربر بشكل عام هم الآداة الذين عن طريقهم انتشر الإسلام[٢٦].

ويبدو أن عدد المسلمين في بلاد السودان الغربي كان قليلاً بشكل عام حتى القرن ٥ هـ/ ١١م. وفي هذا القرن وصل المرابطون إلى هذا الإقليم فوجدوا هناك دولة سودانية وثنية كبيرة، هي دولة غانة. وكانت هذه الدولة تشمل جميع المناطق الممتدة بين نهري النيجر والسنغال. فقد أخذ الإسلام يتوغل في هذه الدولة عن طريق الإختلاط والتجارة ثم كانت الخاتمة بدخول قوات المرابطين إلى هذه الدولة وتمكنهم من هزيمة القوات الغانية

سنة ١٠٧٦ م وبذلك إنكسر الحاجز الوثني وأخذ الإسلام يتدفق بسهولة إلى بلاد السودان الغربي[٢٧].

ويظهر مما سبق ان التجارة عبر الصحراء كانت السبيل الرئيس الذي سرب الإسلام إلى غانة.. فقد كان التجار خلال قيامهم بالمعاملات التجارية واستقرارهم في المراكز التجارية يعرّفون السودان بالإسلام بطريق مباشر وغير مباشر مما جعل الإسلام ينتشر على طول الطرق التجارية بين السوننك وأسلاف التكلور غربا. ووادي السنغال شرقا[٢٨] لذا فقد انتشر الإسلام أول الأمر بين السودانيين عن طواعية ولم يفرض بالقوة، لأنه لم تكن في هذه الفترة دولة إسلامية ولا قوة عسكرية إسلامية تحمي التجار المسلمين.

تعود بدايات دخول الإسلام بشكل منظم إلى مملكة غانة إلى تجارة قبائل صنهاجة البربرية الذين ظهروا على شكل مجاميع في القرن ٣ هـ/ ٩ م وكان بينهم اتحاد شكلي بزعامة لمتونة التي تمكنت من التحكم في تجارة منطقة ما عبر الصحراء الكبرى، ثم تحركت جنوبا لتحصل على السيطرة على مراكز القوافل في اودغست. ومن هذه المدينة انطلق الإسلام نحو غانة. إذ كانت تتجمع بموقع استراتيجي مهم على طريق المواصلات بين الشمال والجنوب وكانت سوقا رائجة لمعدن الملح الذي كان الزنوج بحاجة ماسة إليه لخلو بلادهم منه، وكان الملح يأتي إلى اودغست من مدينة اوليل ببلاد المغرب مارا بها إلى بلاد السودان الغربي، ولذلك كانت حاجة ملوك السودان ماسة إلى قيام علاقة طيبة وسلمية مع اودغست من اجل الحصول على الملح[٢٩]، وقد تبين ذلك من قبل.

وإذا علمنا أن حكام اودغست كانوا مسلمين، ومن اشد البربر تمسكا بالإسلام وتحمسا له، تبين لنا بوضوح كيف أثرت هذه المدينة في إشعاع الإسلام لكل السوننك وهم سكان غانة.. وقد وصف لسان الدين بن الخطيب –كما سبق ان ذكرنا– سكان اودغست بقوله : "وكانوا على السنة والجماعة يجاهدون السودان"[٣٠]، ومن ملوكهم يحيى بن إبراهيم الكدالي– المار ذكره من قبل – الذي كان سببا لقدوم عبد الله بن ياسين إلى هذه البلاد وتكوين حركة المرابطين.

وهكذا فان اول تيارات اعتناق الإسلام في السودان الغربي كان له أسس تجارية إذ كان الملح يعوض بالذهب[٣١] وعليه فقد كانت التجارة المربحة تغري كثيراً من المسلمين

بالقيام بصفقات تجارية مع السوننك في غانة ولما كان الإسلام قد شجع التجارة وحث عليها وأكد على ربحها الحلال، لذلك فلا يمنع أن يقوم بهذه الصفقات عديد من الرجال ممن عرف بالدين والتقوى، وكان في أثناء وجوده في بلاد غانة ينشر الإسلام إلى جانب قيامه بالتجارة ومن المؤكد أن عديداً من أولئك التجار استقر في المراكز التجارية في بلاد السودان الغربي بوصفهم وكلاءً محليين ولم ينته القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر الميلادي حتى كان الإسلام قد عرف بشكل واضح لدى السوننك. ويقال إن عديداً من المراكز التجارية، وبضمنها غانة كان يوجد حي إسلامي إلى جانب الأحياء الوثنية(٣٢).

وفضلاً عن وجود المصلحة المتبادلة بين سكان غانة والحكام المسلمين وما ترتب على ذلك من حسن العلاقة بين الطرفين، فان حكام غانة أنفسهم كانوا على درجة كبيرة من التسامح والعدل ومحبة المسلمين مما أعطاهم الرغبة في القدوم إلى بلاد السودان الغربي والاستقرار بها ومن ثم زيادة انتشار الإسلام. وقد ذكر الدكتور طرخان : إن الحكومة الوثنية في غانة متعت المسلمين باحترام واضح "على الرغم من كثرتهم وأهميتهم وثقافتهم ونشاطهم سواء أكانوا من السوننك أو من المستوطنين العرب والبربر"(٣٣). وكان ملك غانة الوثني كما يقول مؤلف الاستبصار يسمح بمقابلة المسلمين والجلوس معهم، وانه رخص لهم تحيته بتصفيق اليدين على خلاف ما كان عليه سائر القوم من أهل دينه الذين كانوا إذا رأوه وهو دان منهم جثوا على ركبهم وحثوا على رؤوسهم التراب(٣٤).

ونتيجة لهذا القرب من حكام السوننك والاختلاط بهم وما أعقب ذلك من تعرفهم على خبرات المسلمين وثقافتهم، فقد بدأوا يعتمدون عليهم في ضبط أمورهم الإدارية أو في إتخاذهم كمستشارين إذ بدا للملك الوثني أنه من المناسب الإستفادة من الأقلية المسلمة في عدة أمور تتراوح بين إستخدامهم في تحصيل الضرائب أو السلك الدبلوماسي في ضمهم بين صفوف الحرس الملكي وقد اثبتوا جدارتهم لعدم وجود روابط محلية لهم وخبرتهم التي كانت متفوقة على السودان في بعض الأحيان، وفي اضعف الحالات أصبح من الشائع لدى بعض الملوك الوثنيين ان يزينوا بلاطاتهم ببعض الرجال الأذكياء من المسلمين(٣٥).

وقد ذكر البكري أن "تراجمة الملك كانوا من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه"(٣٦). ولم يبق أمام المسلمين إلا إسلام الملك الوثني. وقد تحقق لهم ذلك إذ

أعلن بعض ملوك غانة إسلامهم عن طواعية[٣٧]. وأصبح تقليدا لرؤساء التكلور والسوننك فيما بعد أن يكونوا مسلمين وبدا كأن الإسلام دين لطبقة الحكام والتجار ورجال الدين. وهي الطبقة المثقفة في المجتمع التي كانت تعلن إسلامها عادة قبل غيرها[٣٨].

وقد توّج انتشار الإسلام في غانة بشكله الواسع المطلق، وبإتخاذه ديناً ودولة على أيدي المرابطين الذين نذروا أنفسهم لخدمة الجهاد ونشر الإسلام في الصحراء والسودان وكان أعظم انتصار تحقق على أيديهم هو إسقاطهم لمدينة (كومبي صالح) وهي عاصمة غانة سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦ م وإقامتهم فيها دولة إسلامية[٣٩]. وبذلك رسخت معالم الإسلام في غانة وأخذ الناس يدخلون في دين الله تعالى أفواجاً.

أما أهالي غانة، فقد عرفوا بعد إسلامهم بمحبتهم للدين الجديد وبنذرهم أنفسهم لخدمة الجهاد في سبيل الله تعالى ونشر الإسلام بشكل واسع في مدينة غيارو القريبة من نهر النيجر الأعلى وفي مدينة برسين الواقعة إلى الغرب من الأولى[٤٠] حتى إن كلمة (السوننك) أصبحت مرادفة لكلمة (الداعي) عند عديد من القبائل الوثنية مما يدل على الدور الكبير الذي يؤديه أولئك السوننك في الدعوة إلى الإسلام[٤١].

وبفضل السوننك تحول سكان مالي الماندي دبولا الوثنيين إلى الإسلام، وقد تعودوا بفضل اتصالهم بالمسلمين وقيامهم بالتجارة على اختراق الغابة لشراء جوز الكولا ومن ثم الاستقرار في قلب جنوب السافانا بين الأقوام الوثنية ومن هناك عمدوا إلى نشر الإسلام[٤٢].

لقد عرفت مالي الإسلام بفضل التجار والدعاة قبل قيام حركة المرابطين. ولعل مما هو واضح في تاريخ الإسلام بهذه المنطقة أن الإسلام ابتدأ ينتشر أولا بين الطبقات العليا ثم بعدها يتسرب إلى عامة الشعب، وهذا الأمر ينطبق على مالي كما انطبق على غانة من قبل. وقد جاء في قصة إسلام أول حاكم لمنطقة (كانجابا Kangaba) وهي موطن الماندنجو Mandingo مؤسسي دولة مالي ان ملكهم كان قد اسلم قبل رعيته وأنه عرف بالمسلماني[٤٣].

وقصة إسلام هذا الملك التي ذكرها البكري لم تشر إلى الزمن الذي أسلم به، كما أنها لم تشر بشكل واضح إلى الدعاة المسلمين غير أنها وضحت بأن عديداً من التجار

والدعاة المسلمين كانوا يسكنون منطقة مالي قبل إسلامها، وان بعضهم كان مقربا من الملك الوثني وأنهم كانوا بمحل استشارة ونظر، وانه بفضل إيمانهم وصدقهم تمكنوا من التأثير على السلطة الحاكمة المالية(٤٤).

ومن الجدير بالذكر ان جميع المصادر القديمة لم تشر إلى تحديد الزمن الذي أسلم فيه هذا الملك(٤٥) ولا غيره من ملوك السودان الغربي على وجه الدقة. فالقوم لم يؤرخوا لأنفسهم وما كتب عن بدايات انتشار الإسلام جاء في فترة متأخرة، في حين أشارت بعض المصادر إلى اسم هذا الملك كالقلقشندي الذي أشار إلى قدم الإسلام في مالي غير انه لم يحدد الزمن وأوضح بان "أول من اسلم منهم ملك اسمه برمندانة، وقد حج بعد إسلامه فأقتفى سننه في الحج من جاء بعده من الملوك"(٤٦).

وآستقراء مما توفر لدينا من مصادر فإنه لا توجد سوى معلومات قليلة جداً عن مقاطعة كانجابا وعن إسلام الماندنجو قبل تأسيس إمبراطورية مالي. الذي بدا أن الملك برمندانة كان رجلاً صالحاً تمسك بالإسلام وعمل لأجله، وأنه قد خلفه في الحكم آبنه من بعده (ناري فمجان – Nar- Famagnan) الذي سار على سياسة ابيه في محبة الإسلام والعمل على نشره، وانه أنجب إثني عشر ولداً من إمرأتين كان منهم (سندياتا Soundiata) الملقب ماري جاطة وهو أصغر الأبناء الذي تأسست على يديه أمبراطورية مالي(٤٧).

وقد قام هؤلاء الماندنجو بعد تأسيس كيانهم السياسي (دولة مالي) حوالي سنة ١٢٣٠م بدور كبير في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية المجاورة لهم(٤٨) وكانوا حريصين الحرص كله على التفقه بالإسلام وتعليمه لأبنائهم بشكله الصحيح ولذلك لا نستغرب من روايات ابن بطوطة التي ذكرها بشأن محبة الماليين للإسلام. فقد شاهد عديداً من الشباب والصبيان في أرجلهم قيود رمزية كانوا يربطون أنفسهم بها إلى إن تمكنوا من انجاز حفظ القرآن الكريم(٤٩).

وبسبب ذلك كانت مساجدهم الجامعة تمتلئ بالمسلمين يوم الجمعة، وكان الناس عادة يبكرون بالحضور لكي يظفروا لهم بمكان داخل المسجد يتسنى لهم فيه رؤية الخطيب وسماع صوته. وقد شاهد ابن بطوطة هذه المواقف للماليين بنفسه واستحسنها وذكر أن كل

إنسان كان يبعث غلامه إلى المسجد يوم الجمعة بوقت مبكر رفقة سجادته التي كان يبسطها له ليستحفظ بها موضعه علما بان الاهتمام بحفظ القرآن الكريم كان له مكانة خاصة في نفوسهم إذ كانوا يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوا. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له : ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن، كما مررت بشاب.. وفي رجله قيد ثقيل. فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا ؟ أقتل ؟.. فقيل لي إنما قيد حتى يحفظ القرآن)[٥٠].

أما عن دخول الإسلام إلى دولة الصنغاي فنقول لقد كانت قبائلهم تعيش على امتداد وادي النيجر الأوسط وكانت في مجموعها تضم عشيرتين متنافستين اضطرت إحداهما بحدود سنة ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠ م إلى ترك موطنها والتمركز حول محطة القوافل غاو[٥١].

وفي هذا الموقع اتصلت غاو بعديد من الدعاة المسلمين وأسلمت على أيديهم ولم يلبث أولئك الدعاة المثقفون أن اصبحوا حكاما لهذه القبيلة في مطلع القرن الخامس للهجرة : الحادي عشر للميلاد[٥٢]، ويقال إن أول من اسلم من ملوكهم اصطلح على تسميته في لغة الصنغاي بـ (مسلم دام) أي الذي اسلم بمحض إرادته وليس عن طريق الإرغام[٥٣].

بقي خضوع ملوك الصنغاي رسمياً لملك غانة حتى القرن ٦هـ /١٢م ثم لملوك مالي حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي حيث استقلت دولة مالي وأعلنت مملكة غاو إستقلالها، وقد اعتمد إستقرار الإسلام في الصنغاي على عنصرين أساسيين هما التجارة والتعليم. ففي المراكز التجارية وحيث يوجد الدعاة ينتشر الإسلام. لأن أولئك الدعاة كانوا يجدون في المراكز التجارية أرضاً خصبة لأنه يوجد فيها عديد من الأشخاص الذين يمثل كل منهم جماعة معينة وأرضاً خاصة.

وقد تأسست عدة مدن في موطن قبائل الصنغاي قدر لها في السنوات التالية أن تؤثر تأثيراً قوياً على إنتشار الإسلام في معظم أنحاء السودان الغربي أحداها مدينة جني[٥٤] Genne التي تأسست سنة ٤٣٥هـ /١٠٤٣م والأخرى مدينة تمبكتو[٥٥] Timbuktu وهي مركز مهم لتجارة ماعبر الصحراء وقد تأسست هذه المدينة حوالي القرن – ١١م والثالثة هي ولاته[٥٦] Walata أما الأخيرة فهي (غاو) العاصمة، وهذه المدن تركز

حولها النشاط الإنتاجي والتجاري فضلاً عن تركز العلماء والدعاة والتجار المسلمين الذين كانت لغتهم العربية، وكان تعاملهم بالتجارة ونشرهم للإسلام يستتبع أيضاً نشر اللغة العربية.

ويعود تاريخ إسلام مدينة جني إلى نهاية القرن السادس للهجرة /١٢٥م فقد ذكر السعدي أن ملكها (كنبرو) إعتنق الإسلام بحدود التاريخ الماضي على أيدي بعض الدعاة النشيطين، ثم حذا حذوه كل شعبه. كما يقال: الناس على دين ملوكها وكما نصت رواية السعدي فإن المسلمين كانوا كثرة في هذه المدينة وإن الملك (كنبرو) لما عزم الدخول في الإسلام جمع علماء مملكته من المسلمين جميعاً وكان عددهم يبلغ (٤٢٠٠ مسلم) ثم طلب منهم أن يدعوا الله تعالى له بالنصر على الأعداء ونتيجة لصدق إسلامه فقد هدم دار السلطة وبنى محله مسجداً كبيراً للمسلمين(٥٧).

ويستنتج من رواية السعدي هذه أن مدينة جني وما حولها كانت قد عرفت الإسلام قبل القرن السادس للهجرة بفعل حركة التجار والدعاة المسلمين. وان هذه المدينة كانت مستقراً لعديد بل لمئات من المسلمين الصادقين الذين نذروا أنفسهم لخدمة الدعوة الإسلامية بالطرق السلمية، على الرغم مما قد يبدو من مبالغة واضحة في عدد العلماء المسلمين الذين ذكرهم السعدي.

كما يستنتج من الرواية السابقة أيضاً أن الملك (كنبرو) ومن معه من المسلمين كانوا قد نذروا أنفسهم لخدمة نشر الإسلام في المناطق الوثنية المجاورة. ولذا جاء طلب الملك (كنبرو) من العلماء المسلمين الدعاء له بالنصر على الأعداء ليبرهن على صدق نيته في تبليغ رسالة السماء.

وربما يدل ذلك العمل على أن الملك (كنبرو) اتخذ من الإسلام وسيلة لتجميع قوته على أسس عقائدية جديدة ليتمكن بها من مقاومة أعدائه الذين كانوا –كما يبدو– على خصام مستمر معه ونرى أن الرأي الأول أرجح من الثاني لان الإسلام واضح المعالم في (جني) بفضل كثرة الظهور لحركة الجهاد الإسلامي ضد الكفار، لذلك فمن الطبيعي أن تتبنى مدينة جني بعد إسلامها حركة الجهاد وهذا هو الطريق الطبيعي الذي سلكته الدول الإسلامية كلها بالشرق والغرب على السواء.

ومن الجدير بالذكر أن مدينة (تمبكتو) فضلاً عن شهرتها بالتجارة كانت مدينة إسلامية منذ البدء لم تدنسها عبادة الأوثان(٥٨) وقد أصبحت إبتداءً من نهاية القرن ٧ هـ/ ١٣ م المركز الأساس للدعاة الذين نذروا أنفسهم لنشر الإسلام في بلاد السودان الغربي جميعها. وقد أصبحت تمبكتو – كما قيل – بالنسبة لمدن السودان الغربي بمثابة الأم سواء أكان ذلك في ميدان الثقافة أو العمران أو التجارة.

وهكذا أخذ الإسلام ينتشر من هذه المدينة إلى المناطق الوثنية الى ان أصبحت تمبكتو مركزاً تجارياً مهماً في بلاد السودان الغربي وأخذ يؤمها عديد من التجار من مناطق أخرى مجاورة مما ساعد على زيادة إنتشار الإسلام في المنطقة. وعلى زيادة إستقرار السكان فيها حتى ذكر أن نفوسها بلغت خلال القرن السادس عشر للميلاد ما يزيد على ثلاثين ألف ساكن(٥٩). وقد ظلت تتمتع بتفوقها حتى أصبحت مدينة غاو هي العاصمة السياسية للإمبراطورية الصنغائية وبذلك أصبحت تمبكتو ثاني مدينة في الإمبراطورية بل في السودان الغربي.

وهكذا نجد أن الإسلام انتشر في بلاد السودان الغربي بشكل عام بالطرق السلمية. وكان للسودان الفضل الأكبر في استقراره وثباته. كما كان لهم الفضل الكبير في نشره إذ بعد وضع بذرة الإسلام فيهم وهم وثنيون تجدهم يتحولون نحو الإسلام بإقامتهم شعائر الدين وتقيدهم بالحلال والحرام ثم بعد ذلك تظهر عليهم مرحلة نبذ الولاء للسلطة الدينية القديمة والعمل الجاد من أجل نشر الإسلام في المناطق المجاورة لهم سواء أكان ذلك بالدعوة السلمية أو باستخدام القوة لإزالة العقبات التي تمنع إنتشار الدعوة بسلام.

إنتشار الإسلام في السودان الأوسط

يمكن أن نحدد مناطق دخول الإسلام في السودان الأوسط في منطقة كانم – بورنو ومنطقة الهوسا ففي المنطقة الأولى نشأ إتصال ثقافي مباشر بين شمال أفريقيا والبورنو منذ حوالي سنة ٤٦ هـ – ٦٦٦ م وهي السنة التي وصلت فيها طلائع المسلمين بقيادة عقبة بن نافع إلى إقليم كاوار. وكانت الطريق التي سلكها عقبة هذه تربط كانم

بساحل طرابلس مباشرة وانها كانت تمثل قناة تدفق من خلالها الإسلام إلى السودان الأوسط[٦٠].

وتبعاً لرواية محلية يدعي بعض مسلمي الكانم – بورنو أن الإسلام دخل السودان الأوسط في القرن الأول للهجرة/ السابع للميلاد على يد شخص يدعى "ابن يزيد ألغزاري"[٦١] وكان إسمه قد آرتبط في بورنو باسم أسرة مسبعرمة التي يعتقد بأنها قدمت من فزان أو من وادي النيل حوالي القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين هذه الاسرة كانت خلفا لعدد كبير من العلماء والوزراء الذين شغلوا مناصب كبيرة في دولة بورنو. ولهذا السبب اعتقد بعض الباحثين ان معنى مسبعرمة يعني في بورنو (الوزراء الوراثيون)[٦٢].

وهناك رواية أخرى ذكرها بالمر عن بدايات دخول الإسلام الى السودان الأوسط، اعتمد على ما قدمه المؤرخ الفرنسي دوميز بير بالاستناد الى مخطوطة عربية ترجع كتابتها الى الفترة ما بين ١٦٥٧م و ١٦٦٩م في تمبكتو. تقول تلك الرواية : ان أربعة من جنود الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩–١٠١ هـ / ٧١٧–٧٢٠ م) قدموا من اليمن الى بورنو واستطاعوا أن يكونوا أسرا مالكة في المنطقة[٦٣].

مما سبق يبدو أن الإسلام استقر أولا في كانم وهي الشطر الغربي من آمبراطورية البورنو. ثم بعد ذلك انتقل انتشار الإسلام إلى بورنو وهي الشطر الغربي من آمبراطورية (السودان الأوسط) ثم بعد ذلك أخذ الإسلام ينتشر في المنطقة بشكل واسع وقامت على أثر ذلك عدة مدن إسلامية كانت متبنية للإسلام وتعمل على نشره.

ومما سبق ايضاً يبدو أن الإسلام في السودان الأوسط قد مر انتشاره بثلاث مراحل كانت الأولى خلال القرن الأول وبدء الثاني للهجرة. ثم أعقب هذه المرحلة الأولى هجرة أعداد كبيرة من المسلمين من مناطق مجاورة خدموا عملية نشر الإسلام في السودان الأوسط ولاسيما قبائل التيبو الإسلامية. ثم أخيرا جاءت المرحلة الثالثة التي كانت الدولة البورنوية رسميا هي التي تعمل على نشره بشكل منتظم ورسمي بإصدار القوانين وبإسناد سلاطينها والمرحلة الأخيرة هذه كانت من أهم المراحل السابقة إذ عم الإسلام ونظمه مناطق واسعة حول بحيرة تشاد مما يعرف اليوم بدولة تشاد والنيجر ونيجيريا.

ومما يجدر ذكره انه ابتداء من القرن ٦ هـ/ ١٢ م قام حكام بورنو بأداء فريضة الحج، ومن الواضح أن الحج يؤدي الى قيام علاقات فكرية ودبلوماسية ليست بين حكام بورنو وشعبها مع الحجاز فحسب وإنما مع بلاد شمال أفريقيا ومصر أيضا، لأن تلك الدول تقع على الطريق التي تسلكها قوافل الحجاج القادمة من السودان الأوسط فمكة، وأول ملوك البورنو الذين ذهبوا للحج هو الماي (دونامادابالمي) الذي خلف الملك هيوم جلمي[٦٤] وقد عرف الماي دوناما هذا بالتقوى ومحبة الإسلام ويذكر أنه ذهب للحج أكثر من مرة ، وأنه هو الذي بنى أول مسجد جامع كبير في مدينة بالاك شرقي كانم[٦٥].

ويذكر أن الماي دونمة بن دابالمي (وهو الملك السابع عشر في سلسلة مايات بورنو) لقب نفسه بلقب (أمير المؤمنين)، وانه أول من حطم المعبد الوثني الضخم الذي كان في كانم والذي كان آخر بقايا الوثنيين في المنطقة إذ لم يجرؤ احد المايات قبله على تحطيمه، ولم يؤثر ذلك التحطيم على عملية انتشار الإسلام.

أما أرض الهوسا، فتاريخ دخول الإسلام إليها لم يتحدد بعد بشكل دقيق غير أنه من المسلم به أن الإسلام قد دخل الى تلك المنطقة من جهة الغرب بفعل نزوح جماعة الوانجراوة Wangrawa الى الهوسا. والمعتقد أنهم جاءوا الى أقليم كانم إبان حكم الساركي الحادي عشر وهو ياجي بن تساميا.

وابتداء من القرن ٩ هـ/ ١٥ م أخذ يقصد أراضي الهوسا عديد من علماء المسلمين من شمال أفريقيا وأخذوا يدرسون الإسلام ويعلمون أهالي كانم الفقه الإسلامي على طريقة المذهب المالكي. ويذكر أن رجلا مشرقيا قدم الى كاتو بكتاب (مختصر خليل) في الفقه المالكي، وان ذلك قد أعجب الناس وأنهم حالما سمعوا به أخذوا يدرسونه ثم بدأوا باستنساخه واذاعته بين زملائهم[٦٦].

وأخيرا وبعد عملية نشر الإسلام في الهوسا وظهور المدارس والمساجد برز لدى الهوسا عديد من العلماء الذين قادوا حركة الإصلاح وأحيوا حركة الجهاد الإسلامي وكان لهم تأثير على سائر البلاد المجاورة. ومن أبرز العلماء (محمد بن محمد الكاتسيناوي) المتوفى سنة ١٧٤١ م وكذلك العالم الثائر (عثمان بن محمد بن فودي) المتوفى سنة

١٨١٧ م الذي تمكن من تأسيس دولة في أرض الهوسا تبنت الخلافة الإسلامية وعرفت باسم (خلافة سوكوتو)[٦٧].

انتشار الإسلام في السودان الشرقي

تسربت بواكير الثقافة الإسلامية الى السودان الشرقي منذ أواسط القرن الأول للهجرة/ السابع للميلاد على أيدي التجار المسلمين وبعض المهاجرين العرب الذين توغلوا الى الجنوب من مصر باحثين عن مصادر الرزق أو للدعوة في سبيل الله تعالى فضلاً عن بعض العساكر التي دخلت السودان بأمر من محرري مصر وعملت هناك على تعريف السودان بالإسلام. ثم أعقب أولئك الرواد الأوائل ما حدث من هجرات عديدة لجماعات عربية من الشرق أو من الشمال والشمال الغربي واستقرار تلك الجماعات في أرض السودان الشرقي وما كان من تأثيرها الواضح في عملية نشر الإسلام والثقافة العربية في المنطقة. وبعد هذه الهجرات كثر عدد المسلمين في المنطقة وظهرت ممالك إسلامية منها المملكة الفونجية وقد عول على هذه الممالك بشكل منظم وكبير في عملية انتشار الإسلام في السودان الشرقي.

ويمكن من الفقرة السابقة تمييز ثلاث مراحل لعملية انتشار الإسلام في السودان الشرقي، أولها الفترة الأولى التي اقتصرت على اشعاعات إسلامية بسيطة بوساطة الرواد الأوائل، وثانيها تأثيرات الهجرات العربية التي كانت أوسع وأشمل من المرحلة السابقة وثالثهما مرحلة الكيانات السياسية التي تبنت الإسلام بوصفه دولة وعملت على نشره وحمايته بشكل منظم وواسع.

فبعد أن انتهى عمرو بن العاص من تحرير مصر وجه أنظاره نحو الجنوب حيث بلاد السودان فبعث عبدالله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٠ هـ/ ٦٤١ م على رأس حملة إلى أرض النوبة[٦٨] حيث توجد النصرانية، إلا أن تلك الحملة لم تستطع أن تحسم الموقف فرجع عبدالله بقواته إلى مصر ثم عاد مرة أخرى إلى النوبة سنة ٣١ هـ/ ٦٥١ م ووصلت حملته الثانية هذه إلى دنقلة وكانت على عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان وقد حدثت معارك عديدة بين الطرفين انتهت بعقد هدنة بين مصر وبلاد النوبة، سميت بـ (معاهدة

البقط) وأهم ما اشترط فيها ما يأتي : أن يحفظ نصارى النوبة "من ينزل بلادهم أو من يطرقه من مسلم معاهد حتى يخرج عنهم أو أن يردوا كل ابن خرج إليهم من عبيد المسلمين حتى يرده إلى أرض الإسلام ولا يستولوا عليه. ولا يتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه. وان يحفظوا المسجد الذي بناه المسلمون بفناء مدينتهم ولا يمنعوا منه مصليا وعليه.. تكرمته"(٦٩).

وهذه المعاهدة كما بدت من النص السابق مهمة في عملية بذر أول مفاهيم الإسلام في السودان لأن المسجد هو الدعامة الفكرية الأولى للإسلام ومنه عادة تنطلق أول تعاليم الإسلام ومبادئه وهو منبر ثقافي للمسلمين كما أن هذه المعاهدة أعطت للمسلمين الحق في بناء مسجدهم والحفاظ على استمرارية بقائه فضلاً عن الحفاظ على المسلمين ودفع الشر عنهم، وهذا سيؤدي من غير شك إلى نشر الإسلام وتعريف السودان بالمسلمين وعقيدتهم.

هذا كما سمحت المعاهدة للتجار المسلمين بالاتصال بحرية بالنوبيين. كما أكدت التزام النوبيين بالحفاظ على أرواح المسلمين وهذا أدى من غير شك إلى فتح المجال أمام المسلمين للتحرك في عملية نشر الإسلام وتعريف السودان به(٧٠).

وفي العصر الأموي ازداد الاهتمام ببلاد السودان، وأصبحت هذه الأرض ملجأ للهاربين من الضغط السياسي. ويذكر أن آخر أمراء بني أمية (عبدالله بن مروان) هرب الى السودان(٧١) كما هرب إلى الغمر بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الى جبال الفونج إذ تسموا باسمها ثم استولوا على عرش المملكة التي كانت باسطة نفوذها على أكثر بقاع السودان لأكثر من ثلاثة قرون(٧٢).

وفي خلال العصر العباسي حدث من الظروف السياسية والعسكرية ما دفع الى حدوث معارك عسكرية بين قبائل اليجة(٧٣) والعباسيين انتهت بانتصار الجيش العباسي الذي كان يقوده (عبدالله بن الجهم) على قبائل اليجة انتصارا ساحقا دفعهم الى قبول الصلح وتوقيع معاهدة اعترفوا فيها بالسلطة العباسية كما اعترفوا لهم بمزايا سياسية ساعدتهم على زيادة الصلح وتوقيع معاهدة اعترفوا فيها بالسلطة العباسية، كما اعترفوا لهم

بمزايا اقتصادية ساعدتهم على زيادة نشاطهم التجاري في المنطقة وهذا من غير شك ادى إلى زيادة نشاط الدعوة إلى الإسلام[٧٤].

والحقيقة أن العهد العباسي لم يشهد استقرارا في علاقاته مع بلاد النوبة إذ سرعان ما نقضت المعاهدة عدة مرات إذ أخذ العباسيون يقرون ديار النوبة والتفاعل مع قبائل اليجة حتى أسلم كثير منهم وأصبحت الزعامة بيدهم وهكذا ضعف نفوذ قبائل اليجة من غير المسلمين وانتهى دورهم في المنطقة سياسياً وعسكرياً[٧٥].

والواقع أن العلاقات المصرية النوبية ظلت قائمة وتسير وفقاً لمصالح السلطة الحاكمة لمصر في العصر العباسي المتأخر من طولونية أو إخشيدية أو فاطمية أو أيوبية. غير أنه بشكل عام كانت الفترات المتأخرة هذه أحسن مما كانت عليه العهود السابقة في مجال نشاط الدعوة الإسلامية لأن المنطقة النوبية تطبعت بالوجود العربي والإسلامي وأصبحت جزءاً من العالم الإسلامي، ولاسيما بعد كثرة الهجرات العربية إلى هناك[٧٦].

مكنت كثرة المهاجرين العرب وازدياد أعداد المسلمين من ظهور (الكيانات السياسية) التي بدأت بعمليات نشر الإسلام في المنطقة بشكل منظم ومدروس حيث أخذت تلك الممالك على عاتقها مهمة إحياء عمليات الجهاد الإسلامي وإرسال العلماء والدعاة من أجل نشر الإسلام بين السودان والنصارى والوثنيين.

ففي عصر الفونج مثلا نشطت الدعوة الإسلامية، واشتدت الرغبة في النهوض بالدين، وكانت أساليب الدعوة سلمية في أغلب الأحوال، وقلما استخدمت أساليب العنف والقسوة سوى مع أولئك الذين يستخدمون العنف بوجه الإسلام ودعاته. ومن أمثلة ذلك ما قام به النوباويون سكان الجبال والسلكاويون سكان أعالي النيل من غارات على مسلمي السودان وقراهم وما قاموا به من الاعتداء على بعض نساء المسلمين، مما دفع بملك سنار الفونجي إلى شن غارات طاحنة على الغزاة النوباويين، ثم اعقبتها فتاوى علماء المسلمين السودان بضرورة جهاد النوبة حتى يؤمنوا بالله تعالى ويكفوا عن وحشيتهم تجاه المسلمين فتألفت من أجل ذلك فرق إسلامية تولى قيادتها الفقيه بدوي أبو صفية البديري كانت مهمتها استخدام السيف ضد المعتدين النوباويين. وقد استمر جهاد المسلمين السودان هذا زمنا طويلا حتى انتشر الإسلام في كثير من جبال النوبة[٧٧].

وفيما عدا تلك الحملات الجهادية المذكورة سابقاً فان الإسلام انتشر في السودان الشرقي بطرق سلمية خالصة، كان فيها للعلماء والدعاة والطرق الصوفية الدور المهم والبارز. وقد روى أن أول من اشتهر من أولئك العلماء واسمه غلام الله بن عائد اليمني الذي قدم من اليمن أواسط القرن ١٤ م الذي استقر في دونقلا فقام بنشر الإسلام بين السودان عن طريق التربية والتعليم وانشاء المدارس التي تعلم الأولاد قراءة القرآن الكريم والصلاة، ثم أعقبه في القرن ١٥ م مجيء الشيخ حمد أبي دنانة صهر الشيخ عبدالله الجزولي الشاذلي(٧٨).

ولما قامت دولة الفونج الإسلامية في السودان قدم من مصر الشيخ محمود العركي الذي قدم خدمات جليلة للإسلام في السودان. كما أسهم بشكل فعال الشيخ ابراهيم البولاد ابن جابر بن غلام الله في عملية نشر الإسلام على المذهب المالكي ولما توفي قام أولاده الأربعة بدور كبير في ارساء قواعد التعليم الديني والفقه في أجزاء متفرقة من بلاد السودان الشرقي(٧٩).

ومما يجدر ذكره أن انتشار الإسلام بوساطة رجال العلم والفقهاء في الفترة المتأخرة جاء بشكل غير واسع، نسبة لما كانت تنجزه الطرق الصوفية من أعمال كبيرة في ترسيخ الإسلام في نفوس السودان أو في عمليات نشر الإسلام بين السودان من غير المسلمين. إذ بعد أن كان التصوف مطلبا للصفوة من المسلمين صار مقصدا للمسلمين جميعاً في السودان حتى أصبح من الصعب على الباحث "أن يميز بين الجماعة الصوفية وأهل القرية أو العشيرة في السودان"(٨٠).

أما عن انتشار الاسلام في الحبشة والقرن الافريقي فان المصادر التاريخية أشارت الى أن الحبشة لم تكن من ضمن البلاد التي وجه اليها المسلمون حملاتهم في العصر الاسلامي الأول لأنهم ركزوا جهودهم على الحدود الجنوبية لمصر ذلك البلد الذي أصبح الركيزة الأولى للإسلام في أفريقيا، فضلاً عن المواقف الايجابية لملك الحبشة من المسلمين، لذا لم ترسل اليها الجيوش الاسلامية ما دامت لم تهدد المسلمين ودولتهم.

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) هدد العديد من القراصنة الأحباش حوض البحر الأحمر وتجارة المسلمين مما دفع بسيدنا عمر الى ارسال حملة عسكرية

لتأديبهم ثم استمرت بعد ذلك الحملات البحرية على حدود الحبشة الشرقية حتى سنة ٨٣ هـ إذ تمكن المسلمون من السيطرة على (جزر دهلك) المجاورة لمدينة مصوغ. وكان لهذا الحدث المهم أهمية كبيرة في تسهيل دخول العرب والإسلام الى شرق أفريقيا[٨١].

وأخذت الحبشة منذ نهاية القرن الأول الهجري تدخل في عزلة إذ حاصرها الاسلام من الشمال والشرق وهما المنفذان الأساسيان لها. ثم جاء الطوق الآخر الذي أخذ يتغلغل الى داخل بلادها من الشمال وهو زحف قبائل اليجة القوية مما اضطر الأحباش الى الهجرة الى الجنوب في المناطق الجبلية حيث يعيش (الاجاو) وهم قبائل وثنية وهناك تكونت دولة الحبشة الجبلية[٨٢].

أما الإسلام فانه أخذ ينتشر في مناطق واسعة من أرض الأحباش وأخذ يتغلغل في نفوس عديد من القبائل الوثنية بوساطة القبائل المسلمة أو بوساطة القبائل التي أعلنت إسلامها من القبائل الوثنية المجاورة. ويبدو أن انتشار الإسلام في الحبشة كان زحفا طبيعيا من دون تنظيم أو تعاون بين منطقة وأخرى. علما بأنه لم يكن للمسلمين من منافس شديد هناك يدفعهم لتوحيد صفوفهم وبذلك فقد أخذ الإسلام ينتشر بشكل هادئ ويدخل قلوب السكان بالمحبة والسلام، ثم أصبح من القوة بحيث أن انتزاعه من قلوب معتنقيه بات في حكم المستحيل وأصبح وجود الإسلام في الحبشة حقيقة لا رجعة فيها[٨٣].

ومما سبق يبدو أن الإسلام لم ينتشر في أرض الحبشة بحملات عسكرية أو بوساطة دعاة متخصصين يستندون إلى مؤسسات خاصة تدعم بالمال والقوة كما هي الحال في الأساليب التبشيرية التي يتبعها رجال الكنائس. وإنما انتشر الإسلام بشكل هادئ بوساطة التجار المسلمين الذين كانوا بمثابة دعاة للإسلام بالمظهر والفعل كما انتشر الإسلام بمخالطة القبائل والجماعات الإسلامية مع بني جلدتها من الجماعات غير الإسلامية. ولما كان الإسلام دين الفطرة وكان أولئك السكان على الفطرة لم يحملوا عقائد معتلة منظمة وكان الإسلام سهلا سمحا يزيدهم قوة وتماسكا لذا أخذوا يدخلون فيه أفواجا كما سنذكره تباعا. كما ساعدت هجرة المسلمين على انتشار الإسلام واستقراره.

أما انتشار الإسلام في الساحل الأفريقي الشرقي، فلم يختلف في طريقة نشره عما ذكرناه من قبل عن طريق المحبة والتداخل مع السكان الأصليين عن طريق الهجرة أو

التجارة الموصل من باجون في ساحل بنادر حتى موزنبيق وجزر القمر. فقد كانت أقدم هجرة إلى ذلك الساحل هجرة الأخوين (سعيد وسليمان) أبنى الجلندي اللذين هربا مع أهلهما إلى الساحل شرقي أفريقيا أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ويقال إنهما نزلا في المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم (باتا) الخليفة[٨٤].

ومن الطبيعي أن هذه الهجرة أثرت بشكل أو بآخر على المنطقة فكرياً وحضارياً إذ نقل المهاجرون معهم إسلامهم وما كانوا يعرضون من تراث ثقافي ومادي. وعليه يمكن عدّ سنة ٦٩ هـ/ ٦٨٩ م (هي السنة التي حددت فيها هجرة الأخوين سعيد وسليمان إلى ساحل أفريقيا الشرقي) السنة التي بدأ فيها الإسلام ينتشر في شرق أفريقيا.

ومن الواضح ان تلك المنطقة في ساحل شرق أفريقيا، أخذت تشهد بعد القرن الأول للهجرة هجرات عربية أخرى، ولاسيما ان ساحل شرق أفريقيا له أهمية تجارية كبيرة، إضافة الى عدم وجود عقبات عسكرية وسياسية تقف بوجه المهاجرين علما بأن المنطقة غنية بخيراتها وكل هذه العوامل كانت تدفع بجماعات عديدة الى الهجرة من الجزيرة العربية الى شرق أفريقيا طلبا لمكاسب الدنيا أو هربا من ضغط سياسي أو عسكري كما عرف عن القبائل النبهانية التي قدمت من عمان ووصلت الى ساحل شرق أفريقيا وتمكنت أخيرا من حكم باتا[٨٥].

وفي عهد السلطان عمر بن محمد بن احمد سليمان (ت: ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م) الذي يُعد من أقوى سلاطين النبهانيين ضمت الى باتا معظم مدن الساحل الأخرى كمدينة أوزى وماليندي وكيته واكيوان وقد عمد السلطان عمر الى تنظيم دولته ونشر العدل فيها إذ عين قاضياً من اتباعه في كل مدينة كما عُني ايضا بالتجارة والتجار[٨٦] الذين كانوا رسل الإسلام ودعاته بين الزنوج.

ومن الجدير بالملاحظة ان مدينة لامو كانت من المدن الرئيسة التي نافست مدينة باتا وربما تزعمت المدينتان رئاسة الساحل الأفريقي الشرقي لسنوات طوال حتى بدا بين المدينتين نوع من الترابط الجغرافي والتاريخي ويعد البعض أن لامو هي العاصمة التجارية بسبب امتلاكها لموقعها البحري المهم وامتلاكها لميناء ومرسى للسفن مهم جدا في حين عُدت باتا العاصمة السياسية.

ومن جملة من هاجر إلى ساحل شرق أفريقيا أيضا جماعة من العرب قدموا من الأحياء (القريبة من البحرين) بقيادة سبعة أخوة كانوا قد هربوا من ضغط حاكم الإحساء عليهم وكان ذلك بحدود القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد.

ويعزى لهذه الجماعة العربية دورها في تأسيس مدينة مقاديشو التي سيطرت فيما بعد على مدن الساحل الشرقي لأفريقيا وكان سكانها عربا اقحاحا وعرفت لدى عديد من الجغرافيين العرب القدامى بأنها مدينة الإسلام الأولى في شرق أفريقيا وكانت تمتاز بمساجدها الجميلة ولاسيما المسجد الجامع الكبير الذي كان محطة كبرى للحجاج ولرواد العلم من الأفارقة والعرب المهاجرين(٨٧).

كانت المذكورة سابقاً تدين بالإسلام وتعمل على نشره، كما أنها اشتغلت بشكل عام بالتجارة. وهذا يعني أن أولئك المهاجرين عملوا بشكل أو بآخر على نشر الإسلام في ساحل شرق أفريقيا بين الزنوج سواء بشكل مباشر كدعاة أو عن طريق تعريف الزنوج بالإسلام في أثناء قيادتهم لعملياتهم التجارية مع السكان الأصليين لأن التاجر المسلم يعبر عن إسلامه بأخلاقه وتعامله الصادق أو في أثناء تأديته لفرائض عبادته اليومية وكل ذلك يعرّف بالإسلام ويدفعهم إلى الاستفسار ومن ثم الانتماء إليه.

كما كان لبناء المساجد الكثيرة في الساحل الأفريقي الشرقي أهميته في عمليات نشر الإسلام بين الزنوج فالمسجد هو المنبر الأساس للدعوة وللتثقيف ولتعميق الإسلام في نفوس الداخلين فيه. وإذا علمنا بأن أعداد المساجد كانت كثيرة في مدن الساحل الأفريقي الشرقي تبين لنا مدى سعة انتشار الإسلام هناك. ففي مدينة كلوة مثلاً كان هناك ثلاثمائة مسجد(٨٨) وفي بمبا اكتشفت أخيراً أثار مساجد تزيد على العشرة(٨٩) علما بأن كل المدن الإسلامية الأخرى كان فيها أعداد كبيرة من المساجد الصغيرة وواحد كبير وهو المسجد الجامع الذي تقام فيه صلاة الجمعة والذي يحضره أسبوعياً معظم مسلمي المنطقة، لأن ذلك شرط أساس من شروط الصلاة لدى المسلمين حيثما كانوا.

وحينما نبحث عن أسباب انتشار الإسلام في أفريقيا نجد أن هناك عوامل كثيرة تكمن معظمها بالإسلام الذي هو دين الله تعالى، ثم بالمسلمين أنفسهم الذين صدقوا في حمل أمانة الإسلام. فضلاً عن عوامل أخرى تعلقت بالسكان المحليين الذين أحبوا الإسلام

والمسلمين وفتحوا لهم قلوبهم وبلادهم مما جعل فكرة الأخوة في الإسلام تأخذ نصيبها إلى التطبيق بشكل عملي جاد.

ومما يجدر ذكره ان الإسلام حمل عوامل قوته في ذاته فلم يكتسح القبائل والشعوب اكتساحا، وإنما تسلل فيها تسللا قد يتسرب إلى ناحية دون الأخرى وقد تكون قبيلة مسلمة بجوارها أخرى كافرة. وقد تكون في قبيلة واحدة مدينة مسلمة وبجانبها مدينة وثنية. كما أن الملوك الوثنيين أنفسهم كانوا متسامحين مع الإسلام وأهله وكانوا يشهدون الأعياد الإسلامية ويتقدمون بالهبات إلى الدعاة والعلماء من المسلمين "وقد فتح هذا التسامح وعدم الإكراه قلوب كثير من الوثنيين وشرح صدورهم حتى اعتنقوا الإسلام عن طواعية واختيار.. ولقد كان الإسلام ينتشر في ربوع أفريقيا بقوته الروحية لا بالقوة المادية، وكانت النفوس تنجذب إليه بمغناطيسية الطبيعة لا بدعاية الأموال والأسلحة"[٩٠].

وأهم ما ميز الإسلام وساعد على انتشاره أنه دين الفطرة[٩١] إذ ليس يفوت ذا علم بخواص الدين الإسلامي ومميزاته، وبما له من قوة وسلطان على نفوس معتنقيه، ولعل ذلك سر تسميته بـ (دين الفطرة) التي فطر الله تعالى عباده عليها.

فالإسلام إذن دين الفطرة ولا بد لمعتنقه أن يكون سليم الفطرة والسودانيون بشكل عام كانوا غاية في البساطة بعيدين عن المؤثرات الخارجية، ولذلك كان ملوكهم متسامحين مع الدعاة المسلمين، وهذا هو سر تقبلهم بسهولة للإسلام. وقد ذكر الكاتب الفرنسي هوبير ديشان حاكم المستعمرات الفرنسية بأفريقيا الغربية : أنه مما يسر انتشار الإسلام كونه "دين الفطرة بطبيعته، سهل التناول ولا لبس ولا تعقيد في مبادئه.. ووسائل الانتساب إليه أيسر، فلا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين... وقد حبب الإسلام إليهم في مظاهره البعيدة عن التكلف... فالذي يدخل في الإسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة وأنه قد ازداد من قوة وحيوية"[٩٢].

وعليه فالعبادة في الإسلام بسيطة غير معقدة والله تعالى واحد، وهو مع الإنسان في كل مكان كما لا ترتبط عبادة الإنسان بمكان وزمان وبإمكان الإنسان أن يتعبد الله تعالى في كل وقت وأي مكان إذ لا ترتبط عبادته بدار معينة أو رجال دين بوصفهم ترميزاً.

وكل فرد مكلف بنشر عقيدته والحفاظ عليها ولذا فاق الإسلام جميع الأديان الأخرى في الانتشار في أفريقيا جنوب الصحراء[٩٣].

وهذه العقيدة البسيطة التي تتضمن الاعتقاد بـ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، كما أنها لا تثير مصاعب عقلية خاصة، وبإمكان الناس جميعا بالمستويات المختلفة أن يفهموها فهي "خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية ومن الممكن أن يشرحها أي فرد (ولذلك فبساطة التعليمات الإسلامية) ووضوحها هي على وجه التحقيق من اظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام"[٩٤].

كما يؤدي الإسلام إلى ظهور نوع من التجمع الديني والاجتماعي بين أفراده، ولذا فهو محبوب لدى دعاة الوحدة والملوك وأرباب العوائل الذين يسعون إلى الوحدة والانسجام بين أسرهم وقراهم ودولهم فالإسلام في السودان الغربي لم يفكك التجمعات القبلية وإنما زادها قوة وحماسا تحت تأثير ظروف الاستقرار والسيادة الدينية[٩٥].

فالأسرة المسلمة متماسكة ومترابطة ويظهر تماسكها بفضل الإسلام الذي يدعو معتنقيه إلى احترام الكبير والعطف على الصغير وعدم الخروج عن طاعة الوالدين. وتماسك الأسر المسلمة، هذا يؤثر من غير شك في تماسك المدينة والدولة إذ يشعر الجميع بترابطهم وتعاونهم. فاعتناق الإسلام – كما يقول ترمنكهام – يجعل الفرد المسلم في مجتمع إسلامي، لأن الإسلام بحد ذاته ينظم شؤون الحياة كلها سواء أكانت فردية أم جماعية بحيث تنسجم علاقة الفرد بالمجتمع مع الحفاظ على العرف القديم الذي لا يتعارض مع الإسلام[٩٦].

كما يعطي الإسلام الأشخاص الذين يدخلون فيه نوعا من الحصانة الفكرية والمادية ذات الشعور بالسيادة والثقة ولذا فالزنجي الذي يدخل الإسلام يتعرف على كثير من الحقائق المتعلقة بالله تعالى، ويشعر الإنسان بأنه جزء من العالم الإسلامي الكبير الممتد من سور الصين إلى المحيط الأطلسي كما أخذ يشعر بإنسانيته وبالعزة والكرامة التي صرفته عن الذلة والمنكر والموبقات[٩٧].

ويجب ألا ننسى ان هجرة قبائل البربر من الشمال إلى الجنوب كان لها أثر كبير في نشر الإسلام في منطقة السودان الغربي – مع ملاحظة أن هذه القبائل كان إسلامها

جيدا بفعل المرابطين – كما كان للهجرات العربية المتعددة من جزيرة العرب إلى ساحل شرق أفريقيا أثرها في نشر الإسلام هناك علما بأنه كان للتجارة المقام الأول. فقد كان التجار يأتون من بغداد إلى القاهرة أو القيروان ثم إلى أفريقيا جنوب الصحراء وهم بحاجة إلى توثيق الصلات التجارية واعتماد عملاء وممثلين لهم في المنطقة وبمجرد أن يشاهد العميل الوثني ما تتسم به العمليات التجارية من الصدق تنشأ بينه وبين التاجر المسلم علاقة مبنية على الثقة التي تكون الأساس في استمالته إلى الدين الإسلامي كما أن عديداً من التجار المسلمين ينتهي بهم الأمر إلى الاستقرار في المنطقة ثم يتزوجون هناك وهذا الاستقرار يعقبه – بدون شك – تعرف الوثنيين الزنوج على الإسلام، علما بأن قوافل التجار كثيرا ما كان يصاحبها العلماء والفقهاء وهؤلاء يحملون معهم إلى جانب السلع أخبارا وأفكارا جديدة عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية السائدة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فكل ما سبق لا بد أن يؤدي الى نشر الإسلام في المنطقة[٩٨].

ومن الجدير بالذكر ان الإسلام جاء بفكرة الأخوة بين المسلمين، لا فرق بين عربي وغير عربي ولا فرق بين أسود وأبيض إلا بالتقوى. ومن هنا يبدو السر الحقيقي في نجاح الدعاة والعلماء والتجار المسلمين في نشر الإسلام بين الزنوج إذ "منذ اللحظة الأولى التي يعترف فيها المتحول إلى الإسلام بالعقيدة يسير سيرا عمليا على المبادئ القائمة على إخاء المؤمنين جميعا وتساويهم أمام الله ولذلك فان لون الشرنجي وجنسه لم يحملا بأي حال إخوانه الجدد في الدين على أن يتعصبوا عليه. وفي الحق يظهر أن الإسلام لم يتعامل مع الأسود قط على أنه من طبقة منحطة"[٩٩].

ومن الواضح أيضا أن لانتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء عاملاً نفسياً شجع الزنوج على الإقبال عليه، فقد لقي الزنوج بعد إسلامهم ترحيبا واضحا من إخوانهم المسلمين، بفضل العامل المذكور سابقاً، وهذا الانضمام للدين الجديد الذي تفوق حضارته حضارتهم، تطلب منهم أن يؤثروا التخلي عن كثير من عاداتهم وطباعهم التي لا تتماشى وروح الإسلام. وبذلك وجد الزنوج أنفسهم بعد إسلامهم أنهم "تقدموا خطوة متميزة في تقدم القبيلة الزنجية عقائديا وماديا"[١٠٠].

وأخيرا فان الانجذاب نحو الإسلام لم يكن مبنيا على مجرد الفوائد الحضارية والاجتماعية، بل إن العامل الديني كان له أهمية، إذ أحدث التحول نحو الإسلام روحية عالية رفعت من معنويات السودان كثيرا وجعلتهم يرتبطون بالإسلام بشكل متين بحيث إنهم لا يتقبلون فكرة من دون الإسلام ولاسيما أنهم ارتبطوا بصلاة الجماعة، –وبالاخص صلاة الجمعة– وبالشعائر الدينية الأخرى[١٠١] وهذه الممارسات الدينية، كانت ذات أوجه جذابة جعلت لكل فرد من أهل السودان مكانا مناسبا في وطنه وفي الكون بشكل عام. فقد جاء الإسلام بالخير والمحبة وأمر بصلة الرحم والعفاف والسلام والعدل والإيثار والمساواة والصدق والوفاء والصدقة وحث على الإتحاد والتعاطف والتواد مما جعل سبيله إلى نفوس القوم ينساب انسيابا هادئا وسليما من دون إكراه.

هوامش البحث ومصادره

(١) بلاد السودان الكبرى هذه تمتد جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى، والعرب هم أول من أطلق تسمية السودان على أولئك السكان بعد أن استوحوا لون البشرة. على بلادهم قالوا (بلاد السودان) وتقسم بلاد السودان إلى ثلاثة أقسام : السودان الشرقي الذي يشمل حوض نهر النيل والسودان الأوسط الذي يشمل المناطق الواقعة حول بحيرة تشاد. أما السودان الغربي فيبدأ من ثنية نهر النيجر الشرقية حتى المحيط الأطلسي غربا. انظر دريد عبد القادر نوري، تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء (جامعة الموصل : ٩/٥): ص ٢٢، ص ٢٩

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها (نيوهيفن : ١٩٣٢): ص ٦١، ٩٢

(٣) كما هو واضح المسلم يدفع الزكاة والصدقات والكثير مما لم يفرضه عليه شارع حبا في الله تعالى وقربه وبأشكال مختلفة معروفة. أما غير المسلم فلا يدفع إلا ما قرر عليه من حدود الجزية والخراج. فهو لم يقر بالإسلام ومن غير المعقول أن يدفع الزكاة أو يشارك في الجهاد في إطار الدولة الإسلامية.

(٤) شارل جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمه عن الفرنسية محمد مزالي وزميله. (تونس : ١٩٧٩) : ١٣/٢.

(٥) البلاذري، احمد بن يحيى، فتوح البلدان (القاهرة : ١٩٥٧): ص ٢٤٩، ٢٥٨

(6) Trlmingham (J.S.): A history of Islam in west Africa (London: 1963).

(٧) نفسه.

(٨) في أصل النص كانت (استيلائهم) والأصح تاريخيا ودينيا (فتحهم) لأن الكلمة تتماشى مع عملية الجهاد.

(٩) الدعوة إلى الإسلام (القاهرة : ١٩٥٧) ص ١٤٤ وانظر : ص ١٤٩.

(١٠) غانا : مدينة تقع الى جنوب بلاد المغرب في أرض السودان الغربي تأسست عام ٣٠٠م وكانت مركزا تجاريا مهما وقد عرفت بكثرة وجود الذهب فيها. للمزيد عنها انظر القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت : ١٩٦٠) ص ٥٧، البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، (الجزائر : ١٥٨٧): ص ١٧٤–١٧٥.

(١١) انظر: البكري، المغرب: ص ١٣؛ اليعقوبي، البلدان: ص ١٠٤

(١٢) تناول اليعقوبي توزيع الكثير من القبائل العربية في المناطق المحررة المفتوحة مثال الأزدوجذام في برقة. وجالبيات من البصرة والكوفة في زويلة. انظر : تاريخ اليعقوبي (البلدان): ص ١٠٣، ١٠٤

(١٣) للمزيد عن اقبال السودان على الإسلام انظر : دريد، تاريخ الإسلام: ص ٨٠–٨٥

(١٤) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص اخبار المغرب (القاهرة: ١٩٤٩): ص ١٣٠–١٣٢

(١٥) لسان الدين بن الخطيب، تاريخ المغرب (الدار البيضاء : ١٩٦٤): ص ٢٢٥

(١٦) ابن أبي دينار، المؤنس في اخبار أفريقيا وتونس (تونس: ١٣٨٧هـ): ص١٠٥

(١٧) نفسه

(١٨) السابق: ص ٢٢٨

(١٩) انظر : حسن احمد محمود، قيام دولة المرابطين (القاهرة : ١٩٥٧): ص ١٢٧

(٢٠) دريد، تاريخ الاسلام: ص ٨٩

(٢١) ابو الحسن علي بن عبدالله، الأنيق المغرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الرباط : ١٩٣٦م): ١٤/٢

(٢٢) السابق : ١٥/٢

(٢٣) ابن الخطيب، تاريخ المغرب: ص٢٢٩

(٢٤) السابق: ص ٢٣٠

(٢٥) نفسه: ص ٢٣٢

(٢٦) القلقشندي، أبو العباس بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن النسخة الاميرية (القاهرة : د/ت) ٢٩٣/٥

(٢٧) جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، (القاهرة، ١٩٧٥م) ص ١٥٦ وانظر Triminghem, A history P.11

(28) See. Triminghem, op. cit. P 26,28

(٢٩) ابن حوقل، ابو القاسم محمد بن علي الموصلي، كتاب صورة الأرض (بيروت: د/ت): ص١٩

(٣٠) تاريخ المغرب: ص٢٢٥

(٣١) للمزيد عن تجارة الذهب وتأثيراتها في عمليات نشر الإسلام انظر : دريد ص ٢٠٥-٢٠٨

(٣٢) انظر القلقشندي، صبح الأعشى : ٢٨٤/٥، طرخان، امبراطورية غانة الإسلامية: ص٣١

(٣٣) امبراطورية غانة الإسلامية: ص ٤٥

(٣٤) مؤلف مجهول، كاتب مراكش من القرن السادس الهجري / عام، كتاب الاستبصار في عجائب الانصار، نشر وتعليق د. سعد زغلول (الاسكندرية، ١٩٥٨م): ص ٢٢٠

(٣٥) انظر أي. ام. لويس، الحدود القصوى للاسلام في افريقيا وآسيا (بحث منشور في تراث الاسم، القسم الأول، سلسلة عالم المعرفة. العدد ٨، تعليق وتحقيق د. شاكر مصطفى (الكويت، ١٩٧٨م) ص ١٦٧

(٣٦) البكري، المغرب: ص ١٧٥

(37) See Dela Roncipre, ch/ la Decouverte de/ Africa au Moyen-Age, LaCaire, 1925: P. 103

(38) Trimingham, J.S. The Influence of Islam Vpon Africa (London, 1980

(39) See: Hogben,(S.J.), The Muhammdan Emirater of Nigeria. London:

ص٢٧ (١٩٣٠م) وانظر توماس ارنولد، الدعوة الى الإسلام: ص ٣٥٤

(٤٠) انظر : البكري، المغرب: ص ٧٧٧ وكذلك:

Bovill (E.W.) The Colgen Trade of the Moors (London: 1961)

(٤١) طرخان، امبراطورية غانة: ص٤٨

(42) Trimingham, Ahistory, P31

(43) Trimingham, J.S.islam in west Africa (London: 1956)

(٤٤) انظر البكري، المغرب: ص ١٧٨

(٤٥) عدد المؤرخ الفرنسي دبلافوس تاريخ إسلام الملك وحجه وعده عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م بعد أن اعتمد على الاجتهاد والظن، انظر د. إبراهيم علي طرخان، دولة مالي الإسلامية دراسات في التاريخ القومي الإفريقي (القاهرة ١٧٣): ص ٥٢-٥٣

(٤٦) صبح الأعشى : ٥/٢٩٣، وانظر المقريزي، الذهب المسبواح (القاهرة : ١٩٥٥م) ص ١١٠ ابن خلدون. إن كلمة (ماري) تعني الأمير الذي هو من نسل السلطان وجالطة معناها بلغتهم الأسد : أي ان ماري جالطة تعني الأمير الأسد انظر ابن خلدون ٥/٤٣٣، القلقشندي، صبح الأعشى:

(٤٧) انظر : طرخان، دولة مالي: ص ٣٦-٣٧.

(٤٨) زار ابن بطوطة مالي وتجول في ربوعها وشاهد عن قرب معالمها الإسلامية وحب أهلها للإسلام وكانت زيارته ما بين سنتي ١٣٠٢-١٣٥٣ انظر : رحلة ابن بطوطة: ص ٦٩٠

(٤٩) ابن بطوطة، الرحلة: ص ٦٩١

(٥٠) غاو: مدينة كبيرة تقع على ثنية نهر النيجر، تبعد حوالي ٤٥٠ كم إلى الجنوب الشرقي من تمبكتو، وسكانها تجار أغنياء يتجولون دائما في المنطقة مع بضائعهم، والمدينة بشكل عام سوق لبيع الذهب والرقيق. وتقع حاليا في جمهورية مالي. للمزيد

انظر: الزياتي الحسن بن محمد الوزان (ليون الأفريقي) وصف أفريقيا (الرياض : ١٩٩٩م): ص ٥٤٣–٥٤٥

(٥١) انظر : نعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام (وزارة الثقافة والإرشاد القومي) القاهرة د/ت سلسلة الثقافة الشعبية عدد ٦ص٦٧، زبادية، عبد القادر، مملكة صنغاي في عهد الاسبقين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر، د/ت) ص ١٣٢–١٣٥

(٥٢) السعدي، عبد الرحمن بن عبدالله بن عوان، تاريخ السودان، نشر هوداس (باريس، ١٩٦٤م): ص٣، أرنولد، الدعوة الى الإسلام: ص ٣٥٥

(٥٣) جني : انشئت سنة ٤٣٥هـ/١٠٣٣م وتقع على مسافة ٦٠ كم إلى الجنوب الغربي من تمبكتو وكانت هذه المدينة مركزا للتجار البربر الملثمين والعلماء العرب والدعاة الذين تميزوا بلباسهم الأبيض. انظر الزياتي، وصف أفريقيا: ص ٥٣٧–٥٣٨، عبد الرحمن زكي تاريخ الدول الإسلامية (القاهرة: ١٩٦١م): ص ٢٢٤

(٥٤) تمبكتو : أسست هذه المدينة سنة ٦٠٠ هـ وقد جعلت محطة للقوافل التجارية، نمت وترعرعت حتى عهد السلطان كنكن موسى (القرن الرابع عشر الميلادي) الذي جعلها من أعظم مدن السودان فقد بنى فيها قصرا فخما ومسجدا كبيرا مما دفع بالعلماء واصحاب المصالح التجارية الى الهجرة إليها وخاصة من مدينة ولاته. بلغت تمبكتو أوج ازدهارها في القرن السادس عشر الميلادي للمزيد انظر: دريد ، تاريخ الإسلام: ص ٢٨٤

(٥٥) ولاته : لا يعلم بالضبط تاريخ تاسيسها ولكن يستفاد مما ذكره الزياتي أنها انشئت قبل تمبكتو بسنوات طويلة. وكانت مركزا تجاريا وحضاريا حتى حدود القرن الثالث عشر الميلادي حيث ضعف مركزها بفضل نمو تمبكتو وازدهارها فهاجر العلماء اليها تاركين ولاته للانحسار. انظر: الزياتي وصف أفريقيا: ص ٥٣٥–٥٣٦ والسعدي، تاريخ السودان: ص ٢٢

(٥٦) السعدي، تاريخ السودان: ص ١٢، ارنولد، الدعوة الى الإسلام: ص ٣٥٥

(٥٧) انظر : السعدي، تاريخ بلاد السودان: ص ٢١–٢٢

(58) See Dubois, (F.) : Tombucton la my sterieuse (Paris: 1897) P52

(59) Trimingham. The Influence, P.43

(٦٠) كاني (أ – م) مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال أفريقيا ووسط السودان (بحث منشور) في مجلة البحوث التاريخية (ليبيا، ٨١) السنة الثالثة العدد الأول: ص ١٢–١٣

(٦١) طرخان، امبراطورية البرنو: ص٦٦

(62) See: Palmar (H.R.) The Bornu Sudan (London : 1926) P.29

(٦٣) كاني: ص ١٣ وانظر Palmar, : 67

(64) See: Palmar, The Bornu,P15, 134

(٦٥) كاني: ص ١٦–١٧

(٦٦) نفسه: ص ٢٢–٢٣

(٦٧) أرض النوبة : كان التكوين السياسي لبلاد النوبة قبل الفتح الإسلامي لمصر ينقسم الى ثلاثة أقسام هي : مريس وتقع الى الجزء الشمالي لأرض النوبة وعاصمتها بجراش ومملكة المقرة وتقع في الوسط وعاصمتها دنقلة. ثم مملكة علوة وتقع في الجنوب وتجاورها الحبشة من جهة الجنوب وعاصمتها سوبا. وبعد تحرير مصر وظهور المسلمين في الشمال تشكل اتحاد بين مملكتي علوة والمقرة لأسباب سياسية وعسكرية، انظر : المقريزي تقي الدين احمد بن علي، كتاب المواعظ والاغيار بذكر الخطط والآثار (بولات ١٢٧٠هـ) ص ١٩٠، ١٩٢ وانظر: الإدريسي أبو عبدالله بن عبد العزيز كتاب نزهة المشتاق من اختراق الأفاق ج١ (روما : ١٩٧٠م) ص ٣٣٥

(٦٨) عبد الرحمن زكي، المسلمون في العالم (القاهرة : ١٩٥٨م) : ٢/٨ وانظر : عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافات العربية في السودان (بيروت : ١٩٦٧م): ص ٣١–٣٢

(٦٩) المقريزي، الخطط : ٢٠٠/١

(٧٠) انظر: عبد الرزاق الجاسم، العلاقات السياسية والاقتصادية بين المماليك وبلاد النوبة (رسالة ماجستير غير منشورة) (جامعة الموصل ١٩٨٠م): ص ٣٠، ٣٢

(٧١) عابدين، تاريخ الثقافات العربية في السودان: ص٣٣

(٧٢) زكي، المسلمون في العالم: ص٩

(٧٣) انظر: الجاسم، العلاقات السياسية والاقتصادية بين المماليك وبلاد النوبة: ص٣٢-٣٥.

(٧٤) البجة أو البجاة : وهم قبائل وثنية يسكن معظمها على ساحل البحر الأحمر من أرض السودان وقد ظلت هذه القبائل على وثنيتها رغم ما قام به المبشرون النصارى من جهود حتى احتكاكهم بالعرب والمسلمين. وابتداء من العصر العباسي بدأ إسلامهم يكثر حتى أصبحت الفرق العسكرية الإسلامية في السودان تضم آلاف المقاتلين منهم. عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان: ص٤٠

(٧٥) الجاسم، العلاقات السياسية: ص ٤٠-٤١

(٧٦) السابق: ص ٤٢

(٧٧) للمزيد من المعلومات عن العرب المهاجرين الى منطقة السودان الشرقي انظر : محمد عوض محمد، السودان الشمالي قبائله وسكانه (القاهرة : ١٩٥١م) ١٦٣-١٦٨ و ٢١١ عابدين، تاريخ الثقافة: ص ٣٠-٣١

(٧٨) السابق: ص ٥٦-٥٧

(٧٩) يوسف فضل، مقدمة في تاريخ المماليك الإسلامية في السودان الشرقي: ص ١٢٣

(٨٠) للمزيد عن اسرة الشيخ ابراهيم البولاد وما قامت به من خدمات في نشر الإسلام في بلاد السودان انظر : يوسف فضل، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية: ص١٢٣-١٢٥

(٨١) عابدين، تاريخ الثقافات: ص ٦٢

(٨٢) فتحي غيث، الإسلام والحبشة عبر التاريخ: ص٦٠

(٨٣) السابق : ص ٦٠-٦١

(٨٤) السابق : ص٦٣

(٨٥) يذكر أن باتا أسست عام ٨٠هـ/٧٠٠م ولما كانت الهجرة الى ساحل افريقيا الشرقي بحدود سنة ٦٩هـ ٦٨٩م لذلك فمن المرجح ان الاخوين نزلا المنطقة ثم عرفت بعد

ذلك باسم باتا، انظر: عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في شرق افريقيا القسم الأول ص ٨٣

(٨٦) للمزيد عن هجرة القبائل النبهانية ودورها في نشر الإسلام في الساحل انظر : خولة شاكر محمد، العلاقات العربية الإسلامية مع الساحل الأفريقي الشرقي وهي رسالة دكتوراه غير منشورة (جامعة بغداد : ١٩٨م): ص ٧٧-٧٩

(٨٧) السابق: ص ٨٠-٨١

(٨٨) نفسه، ص٨٨-٨٩، ارنولد، الدعوة الى الاسلام: ص٣٧٨

(٨٩) مصطفى مؤمن، نسمات العالم الإسلامي المعاصر (بيروت : ١٩٧٤): ص ٤٢٣

(٩٠) خولة، العلاقات: ص٢٤٠

(٩١) آدم عبدالله الالوري، موجز نيجيريا (بيروت د/ت): ص ٣٥-٣٦

(٩٢) تعني الفطرة هنا العقل السليم والطبع المستقيم الذي سلم من الخضوع لمؤثرات خارجية تجور به عن طريق الهوى وتخرج به عن الحرية والصفاء والاعتدال. انظر: ابو بكر زكي، الدعوة الى الإسلام (القاهرة : ١٩٥٧م): ص ١٢٩. وقد جاء في القرآن الكريم بخصوص الفطرة الآية: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ (الروم : ٣٠).

(٩٣) راجع، احمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (القاهرة : ١٩٦٤م): ١/١٦٩-١٧٠

(94) Trimingham, Christian Church and Islam in west Africa (London: 1955): P., 14,32

(٩٥) أرنولد، الدعوة الى الإسلام: ص٤٥٤ لويس، الحدود القصوى للإسلام: ص ١٦٧

(96) Trimingham, the Influence of Islam: P.41

(97) Op. Cit.,: P.42

(٩٨) انظر: احمد العطار، انسانية الإسلام (بيروت، ١٣٨٦هـ): ص ٦٤، ارنولد، الدعوة الى الإسلام: ص٣٩٣

(٩٩) انظر : اسماعيل العربي، مسالك الإسلام والعروبة الى الصحراء الكبرى، بحث منشور في مجلة الثقافة الصادرة عن وزارة الإعلام في الجزائر، السنة :١١، العدد ٦٢، سنة ١٩٨١م: ص٤٢، ٤٣

(١٠٠) أرنولد، الدعوة الى الإسلام: ص ٣٦٤، انظر : حسن، انتصار الإسلام: ص ٧٦

(١٠١) أرنولد، السابق: ص ٣٩٦

(102) Trimingham, the Influnence.: P. 42